

أدونيس: نص غير منشور عن زيارة وحيدة لبغداد (1969)

انظر الى سيف الطاغية كيف يشدُ وإلى الأعناق كيف تهاياً للضرب

(تحية الى سهيل إدريس، شاهداً)

■ في السنة 1969، ذهبت الى بغداد عضواً في وفد لاتحاد الكتاب اللبنانيين يرئسه سهيل إدريس لحضور مؤتمر لاتحاد الكتاب العرب. كان نزار قباني بين اعضاء الوفد. بقيت فيها بضعة ايام، دون ان اشارك في نشاط الوفد او في اعمال المؤتمر، لأسباب اود ان احتفظ بها لنفسي. تلك هي زيارتي الوحيدة. الخواطر التي انشورها اليوم كتبت في اثناء هذه الزيارة، وهي تنتشر مع بعض التعديلات، للمرة الأولى. ودفناً لتأويلات يتعشقها بعضهم، ويترصدون كل ما يتجها لهم، أشير الى ان هذه الخواطر ليست «حكماً» على الشعب العراقي بوصفه كلاً، وإنما هي انطباعات عن السلطة وأهلها وعن «المناخ» الثقافي والسياسي الذي كان يؤسس له الدأرون في فلكتها وأفلاكهم، في تلك المرحلة، تحديداً.

عشتار مريضة ترهقها حتى المتنبئ. يكاد ماء دجلة ان يقر من صفتيه.

جلجاش! أيها الإبن الأول - بكر الأسطورة. هل سيظل شعرك ارضاً للهجرة؟ هل الأرجوع هو الوطن؟ والصدافة - من يغنيها بعد؟

هنا، تُصنع الحياة وقدها في ترصد الموت.

هندسة رجال ونساء تروج لطواحين الهواء.

ما للشمس في بغداد، تطلع كل يوم، حاملة بين يديها طفلاً أعمى؟

ليس للحرية إلا تمثال واحد: الحرية.

أكاد أشك ان ابا نواس، وأبا تمام، والتفري عاشوا في بغداد.

الجن في بغداد هم، وحدهم، الجائعون، المتسولون، العاطلون عن العمل، المسجونون... الخ.

هنا، أتأكد ان للحاكم عقلاً منذوراً لتأليف الموسوعات الخاصة باصطياد البشر وترويضهم.

دجلة! أعرف لو ان الثورة مركبٌ لكنك أول من يحطم اشعرته.

سوق الصغافير - فتيات وشبان تبدو اجسادهم تاريخاً طويلاً من الليل، وفي النهار صداً يكاد ان يلتصق بجسد الوقت.

مجارير تسيل في الهواء الطلق، امام المتاجر. روائح كريهة تنهب الفضاء.

ماذا اسمع؟ اهي جدران بيوت قديمة توشوشني: لم يبق لي ما يحرسني غير الذكري؟ ام تراني اتوهم؟

ماذا لا ارسم وجه بغداد على عتبة الشك؟

ليس لاء دجلة ان يقول: لا. ليس لعناق الخنيل ان تصبح اكثر انحاءً مما هي.

رسم لذاته، لوجه الرسم. اتجادل مع ماء لا يتذكر إلا مصادر الماء التي سالت فيه. ماء يعجن خميرة الدمع.

كأنني ارى الموت رابضاً يتصيد البشر.

احب، هذه اللحظة، ان أقول: بغداد - نصفها غابة، ونصفها الآخر صحراء. وأحب ان أسالك، يا صديقي - همساً:

ما الفرق بين بغداد 1968، وبغداد 1969؟

الاولى فتك بها التار، والثانية يفتك بها ابناؤها.

مقهي - نراجيل كمثل عقود تتدلى من اشجار لا تنبت إلا في أرض الخيلة.

في كل «نعم» تكمن «لا». في كل «لا» تكمن جمره لا تعرف كيف تنطق.

تحت بشرة هذا المهني، تتموج محيطات من الرقص.

مكتبة - خط هذا الكاتب اعوج، لكن كلماته مستقيمة.

هذا كاتب بكر. أحياناً يقال الشبيه لكي يقال المختلف.

شاعر كمثل الملاك. أمسح أم ذم؟ يقدر الملاك ان يفعل الخير والشر. لا يقدر الشيطان ان يفعل إلا الشر. أيهما الأكثر نقاً؟

هذا شاعر غامض. ما يتكشف سريعاً، يبتدل سريعاً.

الشعر؟ لا أعرف. كريم كمثل الفضاء. يحتضن حتى الطيور التي تنمرد عليه.

بيدو كل شخص هنا، كأنه نحلة تعيش على شفا جرف هار من الكتابة. كمثل حسب الشيخ جعفر.

هل رأيت شعباً يحتاج الى الظلم لكي يشعر أنه موجود؟

شعب العراق؟ لكن، ما يكون قائد يتسلق الخطط التي يرسمها على جبل من رؤوس البشر؟

العقد؟ لا تنس. تحدث همساً. الغد غصروف تلق في جناح وطواط.

اغفروا له ذنابه. لست رجل انضواء أو التزام. اتعلم كيف اكون رجل حرية. وانتمي الى وعي

دجلة كمثل جسد تجره عربة يجرها الخوف.

دجلة نشيد لقاء قلماً يصغي إليه أحد. ماذا تعمل، ماذا تخرع؟

أنتين لعنة البيت. ولم نعد في حاجة الى التفكير. هناك من يغنينا عنه: يعرف كل شيء، ويجيب عن كل شيء.

وكل شيء يتحول في كيمياء السياسة: أية امرأة تريد ان تكوني، أنتها اليمامة؟

أي رجل تريد ان تكون أيها الهدد؟ ما الدور الذي تريد ان تلعبه، أنت أيها الحجر. وأنت أيها القفل؟

مناخ يطلع الفاظاً، والسهم يهدر في عروق اللغة.

لماذا ليس لبغداد الا طريق واحدة، والطرق أكثر من أن تحصى؟

تبدو بغداد قفصاً من الفاظ، لا يكاد الإنسان يخرج منه، حتى تنفتح كمثل أشداق وحشة تطبق عليه.

كأن العقل لم يعد إلا حبلًا حول العنق.

أيام تنتشي لرؤية الالوان الحمراء، دون ان تستثني لون الدم.

وقت كمثل جسد بأعضاء يلتهم بعضها بعضاً.

إنها الشمس تتشخط في الشوارع. أبو حنيفة، الشافعي، مالك، ابن حنبل - أعطى كل منهم شقّة في السماء، هرباً من هذا العالم. ويقال: كل منهم نذر خلوده في هذه الشقة الفردوسية لتأليف الكتب في ذم الدنيا، وفي طاعة «أولي الأمر».

وما هذه العباة اللازوردية التي تغمر الحضرة القادرية الكيلانية؟

بغداد جنّة؟ الإنسان هو الجنة، لا المكان.

هل تريد البقاء هنا؟

شقي، غاضب وخائب. مثلك. خير ان نتحدث عن المرأة، عن الجمال. في بغداد نساء لا يعرف الوقت ان يتنثري حقاً إلا بهن.

وبأمثالهن. أكرر: لتحدث همساً. رجال يخفون الهواء.

امرأة تعانق شبكاً في بيت على صفة دجلة. امرأة مضية تخاف من الضوء.

شقي، غاضب وخائب. مثلك. خير ان نتحدث عن المرأة، عن الجمال. في بغداد نساء لا يعرف الوقت ان يتنثري حقاً إلا بهن.

وبأمثالهن. أكرر: لتحدث همساً. رجال يخفون الهواء.

امرأة تعانق شبكاً في بيت على صفة دجلة. امرأة مضية تخاف من الضوء.

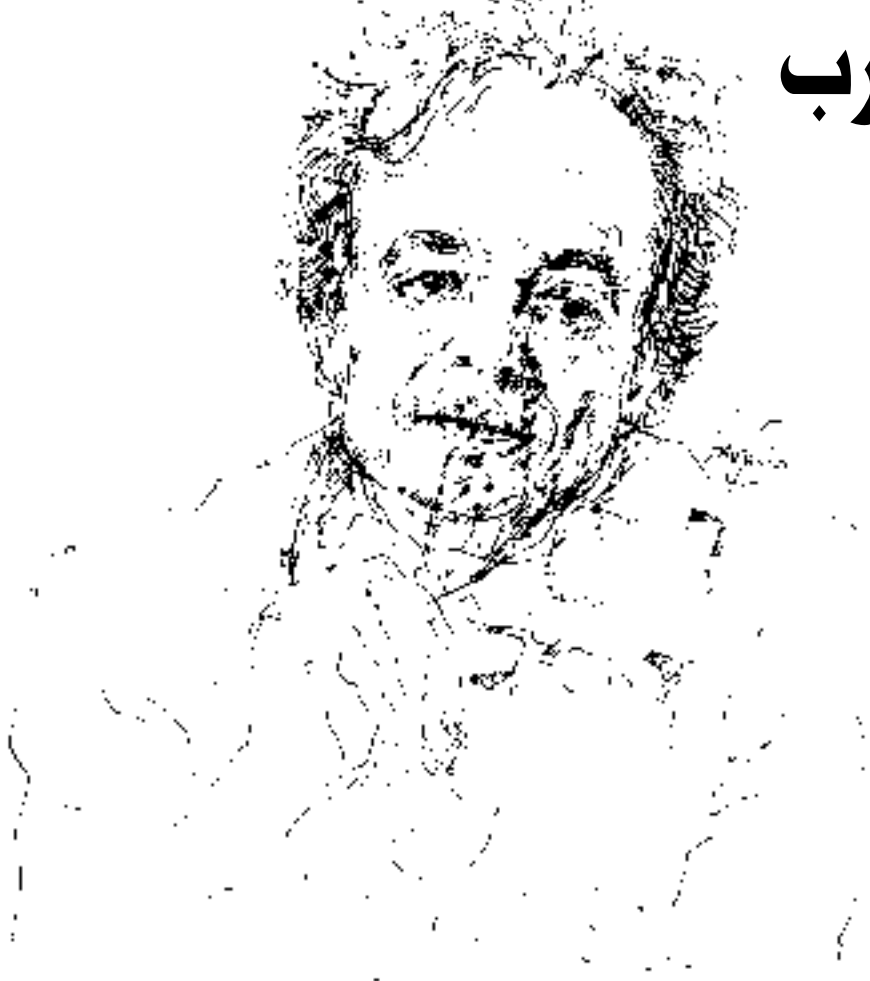
شقي، غاضب وخائب. مثلك. خير ان نتحدث عن المرأة، عن الجمال. في بغداد نساء لا يعرف الوقت ان يتنثري حقاً إلا بهن.

وبأمثالهن. أكرر: لتحدث همساً. رجال يخفون الهواء.

امرأة تعانق شبكاً في بيت على صفة دجلة. امرأة مضية تخاف من الضوء.

شقي، غاضب وخائب. مثلك. خير ان نتحدث عن المرأة، عن الجمال. في بغداد نساء لا يعرف الوقت ان يتنثري حقاً إلا بهن.

وبأمثالهن. أكرر: لتحدث همساً. رجال يخفون الهواء.



إنه، ضغ مكان سرّك سرّة أخرى، وغير راسك.

أثير الآلات يملأ الفضاء. في علم الهيمنة الذي يبسه هذا الأثير، أن بغداد أم تتعقد في حوضها الأجنّة، وأن الجنين يخرج مصلياً للمهيمين الغالب.

وفي علم الهيمنة أن الثوب الذي يلامس جسد الجنين، للمرة الأولى، يُخاط بيد المهيمين الغالب.

وفي علم الهيمنة أن بغداد بيت لُمّل الفجيعة، وأنتي خالفت وانتبذت.

هل كان علي أن أرفض الواقع، وأمضي وقتي كله مع الممكن؟

هل كان علي أن أجهر: لكل صوت في بغداد مهمان؟

أثير الآلات يعمر الفضاء - يتخلل جميع أجزائه، وأسمع من يعل به الوقت والفسراغ والسلطة والجثث، والمستقبل.

هكذا تنتفض الجهات والأفاق، وفقاً لضوء آخر:

البلاد من الآن فصاعداً، سنهم قوسه كرسى السلطان.

طيور - جراح في الشجر، وتلك الوردة التي كانت وتراً من العطر بين مشرق الشمس ومغربها، عنق ينحني، وأهداب تنكسر. ولا يرق إلا الخلب.

ثمة عطش يطوي الجسد طي الورق، وتبدو كل لحظة، كأنها مقمقّم تندلق منه أحشاء التاريخ.

مُتكتئاً على طرف السرير في الفندق (نسيت اسمه).

أسمع دقات ساعة غامضة، كأنها تتدلى من عنق نحلة تكاد أن تبيس.

الساعة الثانية عشرة، ليلاً. ليلاً يسهر بين يدي دجلة. أكاد أن أسمع الماء يسعل، والضفاف تكي. أحذرك أنتها الليلة من ظلماتي، وأنت، أنتها المدن الغرابية النائمة، سلاماً.

فوق طبق الأحداث، أرمي نردّي الجائر. أنتظر، أتأمل، أكتشف أن للأحداث نردّها الغالب.

ماذا أفعل؟ هل أستسلم؟ هل أظل أدرج السؤال كمثل صخرة تكاد أن تردد علي، وأن تردمي فوقي؟

وأنت يا رأسي - قل لي من أين لك هذا العصف الذي فيك، والذي لا يريد أن يهدأ؟

بضع الشعر شفثيه على ذدي بغداد... خرجت منها وأنا أتخيل أن المدن تأخذ أحياناً حلم التغيير، وتدخله الي بيوتاتها، خفية، كأنه عشيق سري. وتذكرت أنني لم أر الكلمات تجلس حول الموائد لتأكل هي كذلك، كما رأيتها في بغداد. تزدرد كل شيء، اللحم والدهن والعظم. الذين ولدوا، والذين ماتوا، والذين لم يولدوا بعد.

وكنت رأيت كيف يحدث أن تتحول اللغة الى جيش هائل من الحيوانات المفترسة. وكنتم حتى تلك اللحظة من السنة 1969، أتعب كثيراً في التمييز بين البشر والشياطين والآلهة. عندما انظر الى «أهل السلطة في العراق». ربما لهذا لم أشعر في بغداد إلا بالبرد حتى وأنا في حضن الشمس.

لكن، لكن، ضغ. أيها الشعر شفثيك على ذدي بغداد.

أدونيس (بيروت، 1969)

في كل «نعم» تكمن «لا». في كل «لا» تكمن جمره لا تعرف كيف تنطق.

تحت بشرة هذا المهني، تتموج محيطات من الرقص.

مكتبة - خط هذا الكاتب اعوج، لكن كلماته مستقيمة.

هذا كاتب بكر. أحياناً يقال الشبيه لكي يقال المختلف.

شاعر كمثل الملاك. أمسح أم ذم؟ يقدر الملاك ان يفعل الخير والشر. لا يقدر الشيطان ان يفعل إلا الشر. أيهما الأكثر نقاً؟

هذا شاعر غامض. ما يتكشف سريعاً، يبتدل سريعاً.

الشعر؟ لا أعرف. كريم كمثل الفضاء. يحتضن حتى الطيور التي تنمرد عليه.

بيدو كل شخص هنا، كأنه نحلة تعيش على شفا جرف هار من الكتابة. كمثل حسب الشيخ جعفر.

هل رأيت شعباً يحتاج الى الظلم لكي يشعر أنه موجود؟

شعب العراق؟ لكن، ما يكون قائد يتسلق الخطط التي يرسمها على جبل من رؤوس البشر؟

العقد؟ لا تنس. تحدث همساً. الغد غصروف تلق في جناح وطواط.

اغفروا له ذنابه. لست رجل انضواء أو التزام. اتعلم كيف اكون رجل حرية. وانتمي الى وعي

دجلة كمثل جسد تجره عربة يجرها الخوف.

دجلة نشيد لقاء قلماً يصغي إليه أحد. ماذا تعمل، ماذا تخرع؟

أنتين لعنة البيت. ولم نعد في حاجة الى التفكير. هناك من يغنينا عنه: يعرف كل شيء، ويجيب عن كل شيء.

وكل شيء يتحول في كيمياء السياسة: أية امرأة تريد ان تكوني، أنتها اليمامة؟

أي رجل تريد ان تكون أيها الهدد؟ ما الدور الذي تريد ان تلعبه، أنت أيها الحجر. وأنت أيها القفل؟

مناخ يطلع الفاظاً، والسهم يهدر في عروق اللغة.

لماذا ليس لبغداد الا طريق واحدة، والطرق أكثر من أن تحصى؟

تبدو بغداد قفصاً من الفاظ، لا يكاد الإنسان يخرج منه، حتى تنفتح كمثل أشداق وحشة تطبق عليه.

كأن العقل لم يعد إلا حبلًا حول العنق.

أيام تنتشي لرؤية الالوان الحمراء، دون ان تستثني لون الدم.

وقت كمثل جسد بأعضاء يلتهم بعضها بعضاً.

إنها الشمس تتشخط في الشوارع. أبو حنيفة، الشافعي، مالك، ابن حنبل - أعطى كل منهم شقّة في السماء، هرباً من هذا العالم. ويقال: كل منهم نذر خلوده في هذه الشقة الفردوسية لتأليف الكتب في ذم الدنيا، وفي طاعة «أولي الأمر».

وما هذه العباة اللازوردية التي تغمر الحضرة القادرية الكيلانية؟

بغداد جنّة؟ الإنسان هو الجنة، لا المكان.

هل تريد البقاء هنا؟

شقي، غاضب وخائب. مثلك. خير ان نتحدث عن المرأة، عن الجمال. في بغداد نساء لا يعرف الوقت ان يتنثري حقاً إلا بهن.

وبأمثالهن. أكرر: لتحدث همساً. رجال يخفون الهواء.

امرأة تعانق شبكاً في بيت على صفة دجلة. امرأة مضية تخاف من الضوء.

شقي، غاضب وخائب. مثلك. خير ان نتحدث عن المرأة، عن الجمال. في بغداد نساء لا يعرف الوقت ان يتنثري حقاً إلا بهن.

وبأمثالهن. أكرر: لتحدث همساً. رجال يخفون الهواء.

امرأة تعانق شبكاً في بيت على صفة دجلة. امرأة مضية تخاف من الضوء.

شقي، غاضب وخائب. مثلك. خير ان نتحدث عن المرأة، عن الجمال. في بغداد نساء لا يعرف الوقت ان يتنثري حقاً إلا بهن.

وبأمثالهن. أكرر: لتحدث همساً. رجال يخفون الهواء.

امرأة تعانق شبكاً في بيت على صفة دجلة. امرأة مضية تخاف من الضوء.

شقي، غاضب وخائب. مثلك. خير ان نتحدث عن المرأة، عن الجمال. في بغداد نساء لا يعرف الوقت ان يتنثري حقاً إلا بهن.

وبأمثالهن. أكرر: لتحدث همساً. رجال يخفون الهواء.

امرأة تعانق شبكاً في بيت على صفة دجلة. امرأة مضية تخاف من الضوء.



مشهد الصفتين: بغداد في الستينات.

ماضياً، كان يسكن على صفتيك بشر لا يؤمنون بالوحدانية، وكانوا مع ذلك أكثر إبداعاً وإنسانية من احفادهم الوحديين الذين يحاصرونك اليوم.

استيقظت من نومي اليوم كأنني شهقة طالعة من جسد الشمس:

أكيد - كانت هي التي وضعت وردة في نافذة غرفتي، وسبقت الشمس عائدة الى بيتها.

تلك الجلسة: كل متكلم يزعم أنه ينطق بالحق. أنه يقول الكلمة الأخيرة الفاصلة.

كل شاعر يريد ان يقال له: أنت الأول والأخير.

زيد يتلطم ويأكل بعضه بعضاً.

صديقي جيم يسكن في ما يشبه قصرأ. قال لي: أكثر سهولة ان يتهدم هذا البيت من ان أفتح فيه نافذة واحدة من النوافذ التي تُشير إليها.

ما أثقل النهار في بغداد. لولا ليها لكانت سجنأ.

مع نزار قباني. معك؟ نعم، ناتي. أينما شئتما. متى شئتما.

كانت تمشي بشجاعة وثقة. وكانت رفيعتها تُصغي إليها، وفي عينها يسبح غزالان حائران.

ولماذا هذا الحجاب؟ حجاب العودة الى البيت. خصوصاً في الليل. التقاليد سجن داخل السجن.

غابتا، لكن كما يغيب كوكبان. كانت الشمس تصعد على درج دجلة.

كان النهار يتهياً لكي يلبس برّته العسكرية.

وكان الليل قد رمى سهمه، وأصاب.

الكرخ - رأيت سومر ويابل كمثل جناحين - خطين بين مشرق الشمس ومغربها. رأيت ما يشبه الموجة التي كانت تستقبل عشتار كلما وضعت قدميها في ماء دجلة. رأيت عشتار نفسها كأنها تنهياً لحب آخر. او هكذا شبه لي.



«في المهني» لوحة للرسام العراقي الراحل فائق حسن.